

القص والتعبير والتخييل ومساءلة الواقع

ينطلق هذا الملف في مجال «تعليم اللغة» من سياق الرؤيا العامة لمركز القطان للبحث والتطوير التربوي لمساءلة المناهج المدرسية عبر الشراكة مع المعلمين والمعلمات لإعادة صياغة المناهج وموقعها كأساس للتعليم باعتبارها منظومة من الحياة والفكر والعالم، وليس ما يحصر فقط في كتاب، ومن خلال العمل على تنمية تعليم اللغة، اكتشفنا ضرورة تغيير لغة التعليم بشكل كلي، عبر استحضار المغيب، والانتصاف للمهمش، وإبداع المفاهيم، وترميم الفراغات، لإنتاج مقترحات تطبيقية ومقاربات تعليمية توفر للطلاب وسائل التعلم والرغبة فيه. ويتضمن الملف أربعة مقالات حول القص، والتعبير، والتخييل، ومساءلة الواقع.

حكاية الجدار وجدار الحكاية: نقاوم الجدار، ونتعلم التاريخ، ونكتب الحكاية الجدار كسياق تطبيقي للتعليم والمواجهة

مالك الريماوي

والوطني والإنساني، وبشكل لا يكون على حساب دورها التعليمي والتربوي، بل بشكل يعمقه ويجعله أكثر مضاءً وفاعلية، منها:

المحور الأول: البحث عن أفكار وسيناريوهات وكيفيات ومخططات لدروس يمكن من خلالها تناول الجدار «جدار الفصل العنصري والتوسع الاستيطاني» ومقارباته تعليمياً على شكل:

- موضوع لفهم الآخر كتاريخ، وسيكولوجيا، وذاكرة، وتجربة، ... الخ.
- اختراق للأساطير الصهيونية والدعاوى الدينية العنصرية.
- عدوان يهدد حياة الشعب الفلسطيني ومستقبله الحيوي.
- حوار مع التاريخ والجغرافيا ومحكمة الضمير العالمي.
- موضوع لإثراء الوعي والمقاومة.
- موضوع لمساءلة التاريخ وتقويض البربرية فيه.

ورأينا أن الموضوعات السابقة وأخرى غيرها قد تكون موضوعاً فاعلاً لحصة أو أكثر، في المجالات والمباحث المختلفة، وبشكل فيه إبداع وتجديد، وستكون مجالاً لاستخدام مصادر وأساليب متعددة منها الرسم، أو القص، أو الصور، أو الكتابة، أو الحوار، أو الخريطة، أو الوثائق، أو النصوص الدينية والأسطورية عبر مناهج وتقنيات متعددة كمنهج تحليل الخطاب والمناهج النفسية والسيمايائية، وبشكل يضع الاحتلال الصهيوني في موقعه الحقيقي كحقله في مصفوفة الاستعمار البربري ومنطقه التاريخي القائم على إخضاع الشعوب الأخرى بالقوة والتدمير، ذلك الوضع الذي يعني أن النضال الفلسطيني

في أثناء عملنا وتفكيرنا في الفعل التدريسي والتربوي في فلسطين، وبالكيفيات والاستراتيجيات التي يمكن ابتداعها وتبنيها للنهوض والارتقاء به، لا يمكننا تجاهل القضايا الملحة في حياتنا أو إهمالها، وذلك لأننا لا نفصل التعليم عن الحياة ولا التربوي عن السياسي والثقافي والاجتماعي.

ومن فهمنا للتعليم بأنه فعل ثقافي بإمكانه أن يعيد تكييف الجغرافيا والتاريخ والمعرفة وتوظيفها لحساب الإنسان وكفاحه من أجل الحياة والحرية والتنمية، فإننا نفكر في ضرورة ربط التعليم بالمقاومة بمعناها الأشمل والأعمق كحالة إنسانية رافضة للشر والتسلط ومتصدية له، التي يمكن تنميتها بمساعدة الفرد على امتلاك القدر اللازم من المسؤولية والوعي الضروريين لكي يكون له موقف من كل القضايا التي تمس حياته وحياة الآخرين، لدينا إيمان بأن الجدار الاستيطاني العنصري يمثل قضية في غاية الخطورة، تطلب موقفاً من كل إنسان على سطح الأرض، أما من الفلسطيني، فالأمر لا يقتصر عند مطالبته بأن يكون له موقف، حيث القضية لا تمس حياته، بل هي حياته نفسها، ولذلك فإننا ونحن نفكر في تنمية التعليم في فلسطين، وفي الإسهام فيه، طرحنا على بساط الأولوية: «الإمكانات والكيفيات التي يمكن عبرها توظيف مشروع «الجدار الإسرائيلي» كحالة تعليمية ووسيط تدريسي، نتعلم من خلالها معارف مختلفة في التاريخ، والجغرافيا، واللغة، والعلوم، والسياسة، والفن، وفن المقاومة».

ولذلك اقترحنا محاور متعددة لكي نفعل دور المدرسة المجتمعي

الجدار والجغرافيا الذهنية للآخر

إن الجدار، كترجمة لجدار ذهني آخر، يتضمن، إلى جانب ما يتضمنه من سياسة استيطانية عنصرية وهوية قلقة، رفضاً للآخر وعزلاً للذات عن محيطها، وهو هنا نوع من التوقع الثقافي والاحتماء في رحم جغرافي أو كهف، تعبيراً عن العودة إلى الدفء الأول والرحم الأسطوري، وهو ضاج بالدلالات منها:

- الفصل بين عالمين؛ عالم الخير وعالم الشر.
- البقاء في دائرة المتخيل والارتهان إلى الأسطوري.
- التوقع والانغلاق والانسحاب إلى الداخل.
- استبعاد الآخر ورفض الحوار، لأن الحوار يزلزل مسلمات الفكر الصهيوني، ويخرجها من دائرة المتخيل إلى دائرة المعاش والواقعي، ما يؤدي إلى تحطمها على صلابة الواقع، وتبخرها نتيجة حرارة الحوار الصراعي، فيأتي الجدار نوعاً من الصيانة لهذه المسلمات المبنية على ترسيمات أسطورية للبشر.
- الاتحاد بالأرض من خلال تملكها فيزيائياً والانفصال عن الإنسان من خلال تغييب السكان الأصليين عبر صناعة الغياب الصهيونية للآخر الفلسطيني

الجدار كسياق تعليمي

وهذا الفهم للجدار، يجعل منه موضوعاً معرفياً وليس موضوعاً تعليمياً، حيث تحققه في الشكل الثاني، كموضوع تعليمي، يتطلب نقل المعرفة من حقلها التخصصي إلى الحقل التدريسي، وهذا النقل منوط بعملية هندسة النشاطات التعليمية، وتوفير الوسائل والوسائط الكفيلة بتحقيق الأهداف المنشودة.

- ومن هنا لا بد من:
- تحويل المعرفة إلى نشاط عملي ذهني يستند إلى فهم لعملية تمثل المتعلم للمعرفة.
- توفير وسائط ووسائل متعددة ومتنوعة تمكنه من عمليات الاستقصاء والتفكير والحوار.
- إعادة توزيع الفضاء التربوي والمكاني بأشكال جديدة وفعالة.

الخطة في شكلها التطبيقي: سلسلة المقترحات والأنشطة

أولاً: الأسماء وخلفياتها ومخزونها الدلالي

1- الاسم والتأويل:

بما أن التسمية ليست بريئة ولا محايدة، وإنما هي في حقيقتها محاولة لتملك الواقع والاستحواذ على الأشياء وحقيقتها، فإنها تبعاً لذلك نوع من التأويل؛ تأويل ينطلق من خلفيات سسيوثقافية محددة ويخدم قوى ويؤسس لعلاقات.

نفتتح الجو التعليمي بسؤال: ما الأسماء التي أطلقت على الجدار؟

يتموضع في سياق النضال الإنساني الذي قدمت البشرية في خضمه الكثير من الألم والمعاناة وحققت في أثناء سيروراته أهم الانجازات الثقافية وأعظم الانفصالات والقطائع، فحققت نقلات مهمة على طريق تحرير الإنسان من بقايا البربرية وتقديس حقه في الحياة الحرة لدرجة أصبح فيها ميثاق حقوق الإنسان إنجيل العصر وقرآنه إلا أن بقاء الإمبراطورية الأمريكية وحليفاتها البريطانية والإسرائيلية في قبضة قوى بربرية متطرفة في تمركزها على ذاتها وعلى مصالحها، جعلها تستمر وتتحدى في سياسات لا تأبه بحرية الشعوب الأخرى وسيادتها وحقوقها.

المحور الثاني: توظيف قصص وحوادث حصلت مع الطلاب أو المعلمين

أو الأهالي خاصة بالجدار أثرت وتوثر على التعليم في المدرسة، ويمكن أن تكون موضوع نقاش أو نشاطاً له صلة بالموضوع، فتمت كتابتها كوثائق توثق معاناة شعب في مواجهة الهجمة لطرده خارج التاريخ عبر سحب الأرض التي تمثل الفضاء الجغرافي لصناعة الحياة والتاريخ، وتوثق الأساليب التي يبدعها الشعب في المجابهة وفي توفير الإمكانات المادية والمعنوية للبقاء والانتصار، فتؤسس لرؤية جديدة لكتابة التاريخ، تاريخ الناس، وتراكم التجربة والخبرة المعاشة، وتحولها إلى معرفة عبر التأمل فيها ومسألتها معرفياً، ثم تعميمها كوعي إنساني من خلال جعلها مواضيع تعلم مدرسي.

المحور الثالث: توظيف الصور المختلفة والأخبار الصحافية من خلال

تدريب الطلاب على تحليل الصورة كخطاب بصري، حيث في الرؤية النقدية كل شيء خطاب يتم تصنيعه بشكل يخدم غرضاً محدداً ووجهة محددة، حتى الصورة فهي ليست محايدة ولا صادقة، فهي في النهاية نتاج لعملية انتقاء واختيار وتقديم من منظور فلسفي وأيديولوجي محدد.

الجدار: قراءة الواقع وتفكيك الأسطورة

إذا كان الجدار في شكله الإسمتي والمادي واقعاً مأساوياً وحقيقة جغرافية تمثل فعلاً سياسياً عدوانياً واستيطانياً يهدف إلى تكريس الاحتلال ونفي الوجود الوطني الفلسطيني عبر سحب الجغرافيا وتعطيل نواضح التاريخ وشل آليات حركته، فإنه في حقيقته الأعمق مجبول من نزعات عدوانية وأساطير ميثاقية وحسابات سياسية وأحلام آثمة لأفراد يسعون لدخول التاريخ العبري كجنرالات وقادة. ولذلك، فإن الجدار حالة مركبة وموضوع مكون من طبقات، منها ما هو ظاهر كالإسمنت والحديد، ومنها ما هو غائر في اللاوعي الجمعي اليهودي وفي طبقات التاريخ، وفي ثنايا الأساطير التوراتية، وهذا ما يؤهله ليصبح موضوعاً تعليمياً، فهو، كموضوع، يتضمن المعرفي والنفسي والتربوي متضافرة في جدلية واحدة.

رابعاً: نختار شعاراً ونصمم ملصقاً أو لافتة

في مظاهرة عالمية ضد الجدار، ما الشعار أو الملصق الذي سترفعه لو كنتم جماعة:

- من المناضلين الأفارقة.
- من الهنود الحمر.
- من الألمان.
- من حزب الخضر.
- من اليهود الذين عانوا من الاضطهاد النازي.

نبحث في الانترنت .. ونختار صورة

لو كنت ضمن فريق فلسطيني سيلتقي وفداً عالمياً، ليناقدش معهم خطورة الجدار وبشاعته، وأردت أن تعرض ذلك بصور، اختار صورة أو أكثر، واكتب ماذا تعني لك؟ ولماذا هذه الصورة؟ وماذا ستقول عندما تعرضها للوفد الأجنبي.

نجمع صوراً مختلفة ثم نقرأ الصورة كخطاب لنكشف عن الدلالات المحملة في الصورة التي بدورها تشي بغايات المصور، وعلى ضوء ذلك يتم تحديد الجهة التي صورت الصورة. كأن نربط صورة 1 مع مصور أجنبي سائح، وصورة 2 مع صحفي فلسطيني، وصورة 3 مع وزارة الخارجية الإسرائيلية ...

خامساً: نرتجل ونتحاور

ضمن برنامج «أكثر من رأي»، عقدت حلقة نقاش متلفزة بعنوان: «الجدار بين الاستيطان والأمن».

فما هو ملخص ما سيقوله:

- ممثل السلطة الوطنية.
- ممثل الدولة العبرية.
- يهودي معارض لبناء الجدار.
- مختص قانوني دولي.
- ناشط في مجال حقوق الإنسان.
- منظر لحوار الحضارات والثقافات.

سادساً: شعوب مختلفة في عالم واحد: وشعب واحد في عالمين

بينهما ألف جدار

... نرسم المأساة ... ونحكي القصة

على ورقة كبيرة نرسم مخططاً للجدار الاستيطاني، ونكتب ونرسم ماذا يوجد على جانبي الجدار: البيت في جانب، والطابون أو البئر في الجانب الآخر، أو الطالب ومدرسته، أو الخراف والحقل.

ويمكن توظيف الصور المأخوذة من الصحف والإنترنت.

نختار حالة من الحالات التي ستذكر.

نرتجل ونحكي حكايتها بعدة روايات وأشكال، ثم نبحث عن رابط بين الحكايات لنحكيها في قصة مكتوبة.

نوظف الحوار المفتوح والعصف الذهني للإحاطة بمختلف التسميات. نثبّت الأسماء على جدار معرفي.

نقارن بينها من منطلق التماثل والاختلاف «غريبتها».

ب- الاسم والدلالات:

نتناول كل الأسماء على التوالي على ضوء الأسئلة التالية:

بماذا يوحي لك؟

بماذا يذكرك؟

نسمع الجميع ونكتب ما يذكر على لوحة المعلومات.

ج- الاسم والقوى التي تتبناه:

نتوزع في مجموعات، كل مجموعة تختار اسماً وتتبناه: الجدار الأمني، جدار التوسع الاستيطاني، جدار العزل العنصري، جدار العار، جدار برلين، جدار الفصل العنصري، أو شفقتس الجديدة.

وعلى ضوء الاسم المختار تقوم كل مجموعة بما يلي:

تحدد هويتها وحقيقتها كجهة أو كتلة سياسية أو مجموعة بشرية محلية أو عالمية.

توضح أسبابها في إطلاق هذا الاسم وتبنيها له.

الخلفيات الثقافية والتاريخية التي استوحيت منها هذه التسمية.

تذكر وثائق تاريخية أو دينية تؤيد وتدعم مزاعمها.

ثانياً: الجدار بين وهم الأسطورة والتباس الجغرافيا

مجموعات بحث واستقصاء:

لبناء وصف لمسار الجدار عبر قراءة الخريطة.

الكشف عن الجذور النفسية والعقدية للجدار في الذهنية اليهودية عبر قراءة للتجربة التاريخية اليهودية وخلفياتها الأسطورية.

البحث في الوثائق ضمن مشروع تاريخي يستند إلى «حفريات المعرفة».

بعد فترة زمنية طويلة سمح لنا كمجموعة من الباحثين الاطلاع على:

- الوثائق الإسرائيلية ومحاضر جلسات مجلس الوزراء الإسرائيلي.
- الخرائط الهندسية والموازنة المالية للجدار.
- خطط السلطة الوطنية بخصوص الجدار وإستراتيجيات التعامل معه.
- وثائق الجامعة العربية وهيئة الأمم المتحدة.

ما الوثيقة التي ستبحث عنها، وتعتقد أن الكشف عنها يمثل كشفاً معرفياً واخترافاً للتاريخ المألوف؟

ثالثاً: كتابة تقرير:

ما التقرير الذي ستكتبه لو كنت:

- لجنة دولية لتقصي الحقائق.
- لجنة من المحامين الفلسطينيين للمرافعة في محكمة لاهاي.
- لجنة إسرائيلية للدفاع عن الجدار.

سابعاً: الجدار في التاريخ

في معرض تعليق أحد المفكرين على بداية الملكية الخاصة للأرض يقول إن أكثر الناس لوماً هو أول شخص سيج قطعاً أرض وادعى ملكيتها، وأن أكثر الناس غباء هم من صدقوه، وبذلك تكون بداية الشرور هي أول الأسبجة، تلك الأسبجة التي بدأت تتحول إلى جدر وأسوار مع بداية حكاية الإمبراطوريات والحروب وما تعنيه من هجوم ودفاع، ولكن ليس الحرب وحدها هي من يحكي حكاية الجدر والأسوار، فلكل سور حكاية، ولكل حكاية فاعل وسياق.

ثامناً: الجدار في نصوص أخرى «نشاط قرائي» لسور الصين حكاية أخرى¹:

إن الرجل الذي أمر ببناء سور الصين، هو نفسه الإمبراطور الأول، شي هانغ تي، الذي أصدر كذلك مرسوماً بإحراق كل الكتب التي كتبت قبل عصره. وبذلك يكون قد قام بأمرين هائلين -تشبيد خمسمائة أو ستمائة فرسخاً من الصخر لردع البرابرة، والإلغاء الجذري للتاريخ، أو بالأحرى، للماضي- صاراً بالتالي تعبيراً عن شخصيته، أقول هذه الحقيقة أسرّتها بلا سبب، وفي الوقت نفسه، أريكتني. ودفعتني لاستقصاء طبيعة هذا الانفعال.

ونفى شي هانغ تي أمه لأنها كانت خاطئة؛ ولكن المحافظين لم يروا في عدالته الصارمة إلا عقوقاً. ربما أراد شي هانغ تي تدمير كتب الشرائع لأنها أدانته؛ ربما أراد شي هانغ تي إقصاء الماضي كله من أجل إقصاء ذكرى واحدة هي ذكرى أمه المهينة (مثل ملك يهودا الذي أراد أن يقتل طفلاً واحداً فأمر بقتل الأطفال جميعاً). هذا تخمين صحيح، ولكنه لا يفيدنا بشيء عن السور، وهو الوجه الآخر للأسطورة. وفقاً للمؤرخين، حظر شي هانغ تي ذكر الموت وبحث عن إكسبير الخلود. أصبح ناسكاً في قصر منيف، فيه غرفٌ بعدد أيام السنة. تثبت هذه الوقائع أن السور في المكان والنار في الزمان هما عاقتان سحريان لدرء الموت. كتب باروخ سبينوزا عن ميل الكائنات لمواصلة وجودها؛ ربما أيقن الإمبراطور وسحرته أن الخلود جواني ولا يمكن للبلى أن يتغلغل في حيزٍ مغلق. ربما أراد الإمبراطور تأسيس بداية جديدة للزمن وتسمية نفسه بالأول لكي يصبح أولاً فعلاً. ربما أطلق على نفسه اسم هانغ تي لكي يتماهى مع الإمبراطور الأسطوري هانغ تي الذي اخترع الكتابة والبوصلة، والذي، طبقاً لكتاب الشعائر، سمى الأشياء بأسمائها الحقيقية؛ فلقد تفاخر شي هانغ تي، في مخطوطات ما زالت موجودة، بأن الأشياء نالت ما يلائمها من أسماء في فترة حكمه. حكم بتأسيس سلالة خالدة؛ أمر خلفاءه بأن يلقبوا أنفسهم بالإمبراطور الثاني، ثم الإمبراطور الثالث، ثم الإمبراطور الرابع ... وهكذا إلى الأبد.

يروي هوبرت ألن جيلس (Herbert Allen Giles) أن من أخفى

كتباً كان يوسم بالحديد الساخن، ويُحكّم عليه بالعمل في السور اللامتناهي حتى يوم وفاته. تدعم هذه الرواية أو تسمح بتأويل آخر. ربما غدا السور استعارة؛ ربما أدان شي هانغ تي أولئك الذين قدسوا الماضي بمأثرة لها عظمة وغباء وعبثية الماضي، وقال في سره في يوم ما سيأتي رجلٌ يشعر كما أشعر، ويمرّ السور، كما أحرقت أنا الكتب، ويمحو ذكراي ويصبح ظلي ومراتي دون أن يعلم».

تاسعاً: جدر أخرى في التاريخ

ولسور برلين حكايته، وكذلك لمعازل الهنود الحمر في أميركا، ومعازل الفصل العنصري في جنوب أفريقيا العنصرية، وخط برليف، نبحت في التاريخ عن أسوار، سواء أقامها الغازي لعزل ضحاياه وسجنهم أم شيدها إمبراطور لسجن شعبه.

عاشرأ: الجدار وعقلية الإمبراطور

من حكاية سور الصين يمكن استكشاف تلك العقلية الإمبراطورية، التي وإن بدت للوهلة الأولى غريبة ومعقدة، فإنه بعد التدقيق يتضح أنها الحقيقة، فليس هناك شخص يدرك دوافعه الحقيقية أو يتطابق ظاهره مع باطنه، هذا على مستوى الأفراد، أما على مستوى التاريخ، فالأمر يصبح أكثر تعقيداً وتشابكاً بين الفردي والجماعي، وبين الذاتي والموضوعي، ولذلك فموضوع السور سواء في الصين أم في إسرائيل يمكن أن يضيء ويكشف ارتباك وظلامية العقلية التي تقف خلف هذه البشاعة.

نبحت عن علاقات بين:

- السور «كتحديد للجغرافيا» والكتب «كتحديد للتاريخ».
- بناء السور وإحراق الكتب ووسم الناس بالنار، وظيفه السور في المكان تماثل وظيفة النار في الحياة والثقافة.
- الوسم بالنار والحكم بالعمل في بناء السور «كتكتابة على الأجساد وعلى الجغرافيا، وكعملية تشويه عبر إخضاع جسد الإنسان أو الأرض لعنف السلطة».
- حرق الكتب وإقصاء ذكرى أمه.
- السور والغرف التي بعدد أيام السنة والخوف من الموت.
- الإمبراطور وهواجس الفناء والرغبة في الخلود، جلجامش حالة أخرى.

وأخيراً: الجدار في فضاء الكتابة «تمرين في الكتابة الإبداعية»²

إن ما نقترحه هنا هو نتاج لسلسلة من عمليات التفاعل بين عدد من العناصر القادمة من حقول متباينة، بعضها جاء من حقل رؤية ترى في الكتابة ليس إنشاءً ولا كتابةً آلية، وإنما يرى فيها فاعلية لتنمية الحس والفكر والشعور، وفرصة لمساءلة الأشياء والمسلّمات ولتحريك الراكد فيها، وهناك إصرار من قبلنا على أن القصة هي إطار مثالي للتعليم والكتابة وأن تعليم الكتابة خاصة، وأي تعليم آخر لا يتحقق إن

رجل أعمال فاسد، قاض عادل، شاعر مثالي، قائد الجيش القاسي ...

يكتب الطلاب بشكل فردي أو بشكل مجموعات عن ما قاله كل واحد من الذين في القصر، وقد يتم توزيع الطلاب إلى مجموعات، وكل مجموعة تتقمص شخصية واحدة أو كل الشخصيات حسب الظروف التي يجري فيها التمرين من حيث العدد والوقت.

ثم نقرأ ما كتب الوزير مثلاً: الاطمئنان ينبع من الثقة بالأشخاص المحيطين بك يا مولاي، وهذا يتطلب اختيارهم حسب الطاعة والولاء. قائد الجيش: الاطمئنان ينبع من خوف الآخرين، عليك يا مولاي أن تبطش فترعب الأعداء وتضمن ولاء وخوف الرعية.

وهكذا ...

يعود الحكيم وتستمر الحكاية: وبعد خروج الحاشية، دخلت ابنة الملك ذات الأربعة عشر عاماً التي سمعت ما دار من حديث في قصر أبيها، لتسأل أباها بعد أن تبادلوا التحية وبعض أطراف الحديث: هل أقنعتك ما سمعته من حاشيتك؟

رد الملك: ما رأيك؟

– اعتقد أنهم لم يصدقوا النصيحة.

– لماذا؟

– لا أعرف بالضبط، ولكنني ... سأحاول.

«الطمأنينة كما تهمس في المدينة ليلاً».

وتدور الفتاة في ليل المدينة تسمع همسات الناس وتصغي إلى أحاديث الليل، وتلتقط ما تعجب به أحلام المقهورين لتكشف لأبيها الملك آفاق سؤال مترف لرجل يعيش خارج زمان الناس، والفتاة تدور بين الشوارع والأزقة والأسواق فتسمع معنى السكينة من أفواه:

□ سجيناً سياسية في زنزانة.

□ جندي في ميدان معركة لا تعني له شيئاً.

□ أم ابنها سيق إلى المقصلة ظلماً.

□ زوجة تنتظر عودة زوج اضطر إلى السفر خلف رغيف خبز لها ولأطفالهما.

□ مغترب يبحث عن عمل ليعيل والدته ويكمل مهر خطيبته.

□ فلاح غادر قريته بعد أن سلبت منه أرضه.

وتعود الطفلة إلى القصر كأنها شهرزاد تواصل فن الحكاية.

فتعود إلى أبيها، بما سيكتبه الطلاب على لسان الشخصيات السابقة «قد يكتب بشكل فردي أو بشكل مجموعات، وقد يكتب بشكل جماعي، حيث يقوم المعلم بوضع ورق من النوع الكبير على سطح الطاولة أو أرض الغرفة ويكتب كل الطلاب في الوقت نفسه» لتقول له إن الطمانينة هي: الخبز والعمل والحياة في الوطن، الطمانينة أن تغرس شجرة، أو تساعد محتاج، أو تعيش من أجل قضية، وأن يكون لك هدف، أو

لم يُسيّر على شكل أنشطة توفر للطلاب وسائل تعلمه والرغبة فيه، وهذا ما حاولنا تقديمه في تمرين يجمع بين الأنشطة العملية والحكاية والكتابة في سياق تفاعلي ومن معطيات عملية، حيث طبق في سياقات عملية تدريبية مع معلمين وطلاب، وقد أكد المشاركون أن التمرين قد أدى إلى:

□ إعادة النظر في الدلالة المعجمية للكلمات.

□ الكشف عن معاني الكلمات ودلالاتها في سياقات اجتماعية وثقافية محددة.

□ استكشاف الأفكار ومجابتها من زوايا نظر متباينة.

□ البحث في ما وراء الظاهر من أفعال الناس.

□ مساءلة الفعل الإنساني في حالاته القصوى.

□ توظيف الحكاية والسؤال والحوار في سياق تفاعلي.

□ ترجمة البصري إلى لغة محكية والعكس.

□ إعادة توزيع القوة والمعرفة بين الرجال والنساء والصغار والكبار.

حكاية الكتابة في كتابة الحكاية

في الكتابة نبدأ من نقطة، هناك دوماً ما سيليهما، ولكن هناك ما هو قبلها ويمثل لها الماضي في الزمان والرحم في المكان، حيث هي نتاج تقطعها في حدث يمثل بالنسبة لها صورتها الماضية، وتمثل له صورتها الحاضرة وتؤول في سيرورتها إلى مستقبلها معاً. هذا يجعل بداية الكتابة قراراً ولحظة اختيار، هي ليست عتبة دخول فحسب، بل هي فضاء الحركة وأفق الإبداع، ولذلك لا بد من تعلم فن الاختيار.

الإمبراطور بداية:

ليبدأ التعلم من الحكاية ويستمر في الكتابة لينتهي فيهما معاً.

يحكى أن إمبراطور مدينة الشمس كان مسكوناً بالخوف، وفعل كل ما يمكنه للتخلص من قبضة الخوف وكوابيسه: نفى الأنداد والمنافسين، ملأ الشوارع بالعسس والجواسيس، نشر الشرطة والحرس، حرك الجيوش وأرهب المدن والدول المجاورة، ومع ذلك بقي أسير الخوف وكوابيسه، وفي يوم ما كان مجتمعاً مع حاشيته في القصر فسألهم عن معنى الأمان والاطمئنان وكيف السبيل إليهما؟

تحولات الحكيم وبداية السؤال:

هنا يتوقف الحكيم ليخلي المكان للسؤال: من الذين في القصر؟ وما نصيحتهم للملك؟ ما معنى الاطمئنان بالنسبة إليهم؟ وما السبيل إليه؟

الكتابة كنشاط:

يذكر الطلاب من في القصر والمعلم يدير النقاش والحوار ويحاول إفساح المجال للتعدد والتنوع: الوزير، قائد الشرطة، فيلسوف حكيم،

ونوزع على الطلاب اللوحة:



ويعطي المعلم لكل مجموعة لوحة «مرسومة أو مكتوب وصف لها على بطاقة»، ويطلب منهم اكتشاف معنى الطمأنينة الذي رآه الطفل فيها:

للمطأينة معان أخرى:

- الطمأنينة هي تلك القدرة على الحياة في الظروف القاسية
- هي تلك الحالة الداخلية
- هي التصالح مع الذات أولاً ومع العالم ثانياً
- هي العبور إلى الأفضل دوماً والكفاح من أجله

حكاية واحدة ... نهايات مختلفة

ويعود الكلام مع عودة الملك من كرنفال العرض وحكاية المعرض، ونعود معه إلى استكمال الحكاية عن سؤال النهاية: ماذا فعل الملك عندما عاد إلى القصر؟ ويكتب الطلاب عن ما فعله الملك بعد أن عاد: غير الوزير والحاشية. تنازل عن العرش لمن هو أكثر منه حكمة.

عين ابنته والطفل الذي في المعرض مستشارين له. وهناك دائماً الطالب المتميز الذي كتب: «ومع ذلك عندما عاد الملك إلى القصر، أمر ببناء سورين؛ الأول حول القصر، والثاني حول المدينة».

مالك الريماوي- مركز القطان

الهوامش:

¹خورخي لويس بورخيس: السور والكتب «بتصرف». استخرجت بتاريخ 8/9/2004 من:

<http://www.nisaba.net/3y/studies3/Studies3/wall.htm>

² انبنى هذا التمرين في أثناء العمل مع المعلمين لتحقيق الكتابة في إطار نشاط متكامل، واغتنى بملاحظاتهم، ولذلك كان لا بد من التنويه بالشكر لمعلمات «مدرسة خولة بنت الأزور» ومعلمي المنتديات، وشكر خاص للزميل وسيم الكردي لما قدمه من إضافات أسهمت في تحقق التمرين في هذا الشكل.

يحبك الآخرون.

يسأل الملك وعلامات الدهشة تتزاحم في وجهه: من أين لك هذا؟ ومن أخبرك به؟

قالت: لماذا؟ هل أعجبك؟

نعم، إن فيه لحكمة.

هذا ما يعرفه الناس، ما يحسونه، وما قالوه لي عندما سألتهم.

كيف حدث ذلك؟ وهل عرفوا أنك ابنة الملك؟

لا، لم يعرفوا. لقد خرجت بالأمس من القصر خلسة وكنت في مظهر عادي وبسيط، ودرت على الناس أسألتهم عن معنى الأمان والاطمئنان، وبأن المعلمة قد كلفتني بذلك كمنشأط مدرسي.

أه كم أتوق لسماع هذا من الناس، إن فيه حرارة الصدق، وعمق التجربة. هكذا أردف الملك.

الابنة: لا يمكن أن يقول لك الناس ما يحسون، بعد أن رأوا منك ما رأوا، لكني أقترح عليك ما سيعوضك عن ذلك.

- أه ما هو يا أيتها الحكيمة الصغيرة؟ قال ذلك وهو يداعب شعرها بيده وقد بدا عليه أنه قد دخل الدور واستهوته المغامرة.

تعلن في الناس عن مسابقة في الرسم، يشارك فيها كل الناس، رسم لوحة تجسد معاني السكينة والطمأنينة، وأن هناك احتفالاً كبيراً لعرضها، وهناك جوائز لأفضل مائة لوحة يرى الناس فيها الأمان والاطمئنان.

يعلن ذلك في الناس ويأتي الموعد ويبدأ العرض ويقبع الملك في زاوية يتمكن منها أن يشاهد ما يجري ويسمع ما يقال، ويلاحظ أن هناك لوحة تستقطب اهتمام معظم الناس الذين يرددون أنها الأفضل، وأنها ستكون الأوفر حظاً في تجسيد معني الطمأنينة...

يطلب المعلم من الطلاب وصف اللوحة كتابة في سطرين مثلاً... ومن الدارج، وحسب تجربتي مع معلمين وطلاب، أن الوصف سوف يركز على وصف رومانسي مثالي: منظر طبيعي يوحي بالهدوء، حالة تعايش بين الأضداد ملك ورعية، حمل وذئب، لوحة فيها لعب ومرح... الخ.

لوحة أخرى وطمأنينة مختلفة

وبعد أن يقول الطلاب ما كتبوه يستمر الحكمي... وبعد أن شاهد الملك اللوحة التي أعجبت الناس توجه إلى لوحة كانت قد أعجبت طفلاً واستحوذت على انتباهه منذ مدة طويلة، وقد وقف أمامها منذ أن وصلها، وصله الملك وسأله ما الذي تراه فيها؟